المعايير المفاهيمتية لمجتمع الاتصال و الاشكاليات التي يطرحها

د. ريم بوش[1]

المستخلص

يهدف المقال إلى محاولة رصد التحول الذي طرأ على مجتمعات الاتصال، حيث ساد الاعتقاد أن المجتمعات التي تتواصل أكثر تتحقق فيها التنمية بشكل أفضل و لن نناقش مدى صحة هذه المسلمة بقدر ما سنتساءل عن المعايير التي نحكم من خلالها عن مجتمع ما بأنه قد أصبح مجتمع اتصال. فلن أرصد المظاهر المادية للاتصال، عبر تتبع أرقام الصحف المطبوعة مثلا، أو تحديد مدى تطور عدد مشتركي الإنترنيت، أو ممتلكي الهاتف النقال في مجتمع ما.فالاتصال فكرة تلهم حياتنا،قبل أن تكون تقنية استعمالية نوظفها. ولرصد هذا التحول اتبعنا الخطوات التالية:

-تحديد مجتمع المعلومات باعتباره خاصية من خصائص مجتمع الاتصالات.

---

[1] أستاذة بجامعة الجزائر٣ كلية علوم الاعلام والاتصال/قسم الاعلام

-الاشـــكاليات التـــي يطرحهـــا مجتمـــع الاتصـــال:الفجوة الرقمية،الهويـــة،الغزو الثقافي،حيث سأتطرق إلى كل مفهوم على حدى.

-رصد مجالات التحول:

- الاقتصاد
- السياسة
- القيم و العلاقات الاجتماعية.

يشار إلى مجتمعات الاتصال بأنها تلك التي تحوز على جملة من القيم و المعايير التي تسمح لها بأن تحقق أعلى درجات التواصل فيما بينها،بغية تحقيق الاستقرار في المعاملات وجعل الاتصال قيمة اجتماعية غاية في الأهمية،و ذلك بالنظر إلى جملـة الخصـائص التـي تتحقـق بفضـلها.فمجتمعات الاتصـال تتميـز بخصـائص أساسية ترتكز عليها في تكريس وجودهاو استمرارها. منها :الخصائص الاقتصادية والخصائص السياسية وكذا القيم والعلاقات الاجتماعية. ناهيك عن أن كل خاصية من هذه الخصائص المذكورة لها تفرعات ترتبط بها وتؤكدها وتشكل بالنسبة لها إطارا ابستيمولوجيا لا يمكن الاستغناء عنه.

يقول عالم الأنثروبولوجيا إدوارد هال **Edward Hall:** تشكل الاتصالات قلب الثقافة وحتى الحياة ذاتها[1]. لذلك يتفق الجميععلى أن للاتصال أهمية كبرى داخل المجتمع، إذ أن الأمم التي تتواصل أكثر،تتطور بشكل أفضل وتتحقق فيها التنمية. ونتناول هذه الخصائص التي نحكم من خلالها على مجتمع ما بأنه أصبح مجتمع اتصال. وذلك بعد أن نتناول بالتعريف مجتمع المعلومات باعتباره خاصية من خصائص مجتمعات الاتصال.

التعريف الاصطلاحي لمجتمع المعلومات

يشير مصطلح مجتمع المعلومات **Information Society** إلى شكل من أشكال التنمية الاجتماعية والاقتصادية، يؤدي فيه امتلاك، تخزين، تشغيل ونشر المعلومات إلى توليد أفكار جديدة ومتطورة من المعرفة، التي يمكن استخدامها لبناء السياسات واتخاذ القرارات وتنفيذها وتقييمها، و إشباع احتياجات الأفراد والمؤسسات في المجتمع. وعلى هذا يلعب مجتمع المعلومات دورا حيويا في

---

[1]Warren I. Sussman, Culture as history: The transformation of American society in the twentieth century, Pantheon Books, New York, 1973, P252.

النشاط الاقتصادي، وفي توليد الثروة، وتحقيق نوعية حياة أفضل للمواطنين. وتحقق القطاعات المختلفة التي تركز على انتاج المعرفة في الدول المتقدمة مثل: صناعة المعلوماتية، والاتصالات، والخدمات، نسبة تصل إلى **٥٠%**من إجمالي الناتج القومي في هذه الدول، وتوفر فرص عمل لأعداد متزايدة من الموارد البشرية.

ويعتبر دخول الدول العربية إلى مجتمع المعلومات نمطا من أنماط الحتمية التاريخية،ذلك أن توزيع الفرص والأدوار تذهب تلقائيا على كل المستويات الدولية و الاقليمية،حيث تأتي في المراتب الأولى عملية تحديث أدوات الانتاج و التوزيع و الخدمات و الاتصالات،و تهيئتها للاندماج في البيئة الدولية الاقتصادية و السياسية،في ظل أوضاع تتسم بسرعة التقدم التكنولوجي في مجال الاتصالات و المعلومات،و غزارة تدفقها التي أصبحت تشكل القاعدة الأساسية لأي تقدم أو نشاط تمارسه المجتمعات الآن.[١]

---

[٢] راسم محمد الجمال،الاتصال والاعلام في العالم العربي في عصر العولمة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠٠٦، ص١٧٧.

تتفق المصادر الغربية لاسيما الأكاديمية على أن العالم العربي هو أقل مناطق العالم من حيث قدراته العلمية و التكنولوجية و البشرية و أضعفها من حيث مساهمته و استفادته من مجتمع المعرفة و مزاياه، فالدول العربية دخلت عصر التصنيع متأخرة بقرون .و هاهي تدخل عصر المعلومات متأخرة بعقود. فهي أمم غير منتجة للمعرفة، ولا مستهلكة لها، ولا مستفيدة منها بشكل جيد، ولا هي قادرة على التأهل لولوج مجتمع المعرفة.

إن التحدي الذي يواجهنا أساسا هو معرفي بالدرجة الأولى، فالتطور الآن هو بالضرورة تطور نحو بيئة لديها القدرة على انتاج و استهلاك المعرفة. و قد عبّر تقرير التنمية البشرية العربية لعام ٢٠٠٢ عن هذه الحقيقة بالإشارة إلى أن الخيار الأساسي أمام العرب هو ما إذا كان مسار المنطقة العربية سوف يظل متسما بالقصور الذاتي، بالإبقاء على الهياكل التي أفرزتها التحديات و المشكلات التي تواجهنا أو الانطلاق نحو نهضة. هناك خياران: أولهما الاستمرار في الاعتماد على المجتمعات الغربية الرائدة في انتاج المعرفة و ثانيهما بناء قدرة الانتماء إلى مجتمع المعرفة بإقامة نظام ديناميكي و فعّال لحيازة المعرفة، و هو ما يعد أحد المفاتيح الأساسية للتقدم في الدول العربية.

و قد ربط التقرير بخيار استراتيجي آخر، يتعلق بالاختيار بين الابقاء على السياق القائم الذي أثبت عدم صلاحيته، أو التحرك لبناء هيكل مؤسسي يمكّن من التنمية البشرية، و يساهم في مواجهة المشكلات المختلفة سواء في المجال السياسي أو الاقتصادي أو التنظيمي أو التعليمي أو الثقافي أو الأخلاقي، وإنتاج و توزيع و استهلاك المعرفة من خلال زيادة الانفاق الحكومي على نحو يؤدي إلى وفرة الموارد اللازمة لجمع المعلومات.[١]

من مجتمع المعلومات إلى مجتمع المعرفة

مع انتشار تكنولوجيا المعلومات ووسائل الاتصال الجديدة ، وبروز الإنترنت كشبكة عامة، فتحت فرص جديدة لتوسيع الفضاء العام للمعرفة .و السؤال المطروح الآن هل سنملك وسائل تسمح لجميع الناس بالنفاذ بشكل متساو وشامل إلى المعرفة؟

إن تحقيق هذا الهدف هو أساس أى مجتمعات حقيقية للمعرفة لتكون مصدراً لتنمية بشرية مستدامة.

ويمكن القول إن مجتمع المعرفة لا يمكن أن ينهض إلا على أساس «اقتصاد المعرفة». وقد استعمل مفهوم مجتمع المعرفة لأول مرة عام **١٩٦٩** بعد أن ابتدعه

---

[1] المرجع نفسه،ص١٧٩.

فيلسوف الإدارة الشهيرة **بيتر دراكر Peter Druceker** الذى قرّر أنه لا يمكن تأسيس مجتمع المعرفة إلا إذا تبلور اقتصاد للمعرفة **Knowledge Economy**

واقتصاد المعرفة يعنى استخدام المعرفة لخلق قيم مادية وغير مادية و تساعد التكنولوجيا–وخصوصاً تكنولوجيا المعرفة والذكاء الاصطناعى –على تحويل جزء من المعرفة إلى آلات. وهذه الآلات يمكن– من خلال عملية صنع القرار فى ميادين مختلفة– أن تنشئ قيماً اقتصادية.

ومفهوم اقتصاد المعرفة الذى صاغه بيتر دراكر فى كتابه عصر الانقطاعات

The age Of discontinuitesيرجعه هو نفسه إلى الاقتصادى **فريتز ماشلب Fritz Machlup** بل يعود به إلى فكرة الإدارة العلمية التى صاغ مفاهيمها **فريدريك تايلور**.

وإذا أردنا أن نفصل فى أبعاد مفهوم اقتصاد المعرفة لقلنا أنه يعنى أن المعرفة والتعليم – والذى غالباً ما يشار إليه بالرأسمال الإنسانى– يتمثل فى منتجات تعليمية أو فكرية تجديدية يمكن تصديرها مقابل عوائد كبيرة .

فالسمة الرئيسية لاقتصاد المعرفة هو اعتماده الكبير على الإمكانات الفكرية أكثر من اعتماده على المدخلات الفيزيقية أو الموارد الطبيعية.

وقد قام «**دراكر**» بتأصيل مفهوم اقتصاد المعرفة فى كتابه"" **The effective Executive**" الصادر عام **١٩٦٦**، الذى أقام فيه معرفة أساسية بين العامل اليدوى"**Manual Worker**" والعامل المعرفى "**Knowledge Worker**"، على أساس أن الأول يعمل بيده لإنتاج السلع والخدمات فى حين أن الثانى يعمل بعقله وليس بيده وينتج أفكاراً ومعرفة ومعلومات.

ولابد من توضيح الفرق الجوهرى بين مجتمع المعلومات ومجتمع المعرفة، وذلك لأن المعلومات لا تكون بذاتها معرفة، فالمعرفة تحتاج بصورة عامة إلى عقل نقدى يفاضل بين المعلومات ويميز بين الزائف منها و الصحيح ويستطيع أن يفاضل بين الآراء المختلفة ليفرز الذاتى من الموضوعى[١].

وهناك اتفاق بين الباحثين على أن عديداً من العوامل التى أدت إلى تغيير قواعد ممارسة الأنشطة الاقتصادية لا تؤثر تأثيراً كبيراً على المنافسة بين المشروعات وهى:

1- الأسواق والمنتجات أصبحت معولمة.

2- تعميق تكنولوجيا المعلومات.

3- الميديا الجديدة التى أدت إلى زيادة المنتجات وتوزيع المعارف والتى أدت فى النهاية إلى نشوء ما يطلق عليه الذكاء الجماعى.Collective intelligence

4-التشبيك الإلكترونى وزيادة القدرة على الاتصال. وفى ضوء هذه التطورات فإن السلع والخدمات يمكن أن تنمى وتشترى وتتاح وفى أغلب الحالات تسلم عبر الشبكات الإلكترونية.

١السيد يسين، من مجتمع المعلومات العالمي إلى مجتمع المعرفة، الأهرام، العدد ٤٦٧٤٩٤، ديسمبر ٢٠١٤.تاريخ الاطلاع ٢٠١٦/٠١/٢٠.http://www.ahram.org.eg/NewsQ/344463.aspx.

ويلتفت التقرير الأول لليونسكو عن مجتمع المعلومات إلى مسألة فى غاية الأهمية وهى أخطار التسليع المفرط للمعارف حيث أشار أن المعرفة أضحت مسلعة"بشكل معلومات قابلة للتبادل والترميز. "

وهناك انتقادات لهذا الاتجاه لأن المعرفة فى هذه الصورة يمكن التلاعب بها فى قواعد البيانات ومحركات البحث وإدماجها فى الإنتاج كأحد ترتيبات العلم القائم على التكنولوجيا وتحويلها إلى شرط للتنمية وإلى رهان للسلطة أو إلى أداة للمراقبة قد تنتهى إلى هدم نفسها بنفسها من حيث هى معرفة.

وتبدو الخطورة كما يقرر تقرير اليونسكو – فى أن الاستحواذ على المعارف بعد التسليع المفرط لها فى المجتمع العالمى للمعلومات قد يشكل تهديداً جدياً لتنوع الثقافات المعرفية.ومن هنا يصح التساؤل عن المكان الذى ستمثله بعض المهارات والمعارف المحلية أو الأصلية فى اقتصاد تعطى فيه الأولوية للمعارف العلمية أو التقنية؟

ألا تواجه هذه المعارف المحلية الأصيلة التى يقلل غالباً من شأنها بالمقارنة مع المعارف التقنية العلمية الزوال بكل بساطة، فى الوقت الذى تمثل فيه هذه المعارف ميراثاً غنياً لا يقدر بثمن وتشكل وسيلة للتنمية المستدامة؟

ولو رجعنا إلى تقرير اليونسكو الأول فيمكن القول إن أبرز مفردات مجتمع المعرفة هى:

1- أن مجتمعات المعرفة مصدر للتنمية وأن حرية التعبير هى حجر الأساس.

2- تأثير تكنولوجيات المعلومات والاتصال الجديدة على المعرفة الشبكية.

-3 التعليم هو القيمة الأساسية فى مجتمعات المعرفة، بالإضافة إلى أهمية توفير المعرفة.

-4 التعليم الأساسى للجميع والتعليم للجميع مدى الحياة من بين الأسس الرئيسية لمجتمع المعرفة.

-5 تطوير التعليم العالى مسألة أساسية فى بلورة مجتمعات المعرفة.

-6 عقد الصلات العضوية بين البحث العلمى والتنمية واستكشاف حدود العلم الجديدة.

-7 نشر الثقافة العلمية بين الجماهير.

-8 أهمية الالتفات إلى موضوع المخاطر والأمن البشرى فى مجتمعات المعرفة، لأن المعرفة قد تكون مصدراً لأفكار جديدة.

-9 ضرورة الحفاظ على المعارف المحلية والأصيلة والحرص على الحفاظ على التنوع اللغوى.

-10 وضع سياسات ثقافية لإتاحة المعرفة للجميع[١].

و لقد أثارت مجتمعات الاتصال مجموعة من الاشكاليات نذكر منها: الفجوة الرقمية، الهوية، و الغزو الثقافي. سأتناول كلّ مفهوم بالشرح.

---

[١] المرجع نفسه.

الفجوة الرقمية

لقد أحرزت الدول العربية تقدما نسبيا في مجال المعلوماتية، و لديهم إمكانات لتطبيق الحكومة الالكترونية، إلا أن الوضع العام يشير إلى ثمة فجوة بينهم و بين الدول المتقدمة و بقية أقاليم العالم حيث بلغ عدد مستخدمي الأنترنيت في منطقة الشرق الأوسط عام ٢٠٠١ حوالي**4,65 مليون** من إجمالي **٥١٣,41 مليون** فرد على مستوى العالم،أي حوالي **0,91%** من الاجمالي العالمي، أي ثمة فجوة رقمية بينهم و بين بقية مناطق العالم باستثناء افريقيا،التي تقل وضعيتها عن وضعية الشرق الأوسط.

و تتباين وضعية الدول العربية بالنسبة لبعضها البعض إلى حد كبير، و الفجوة الرقمية بينها واضحة،و يمكن تقسيم الدول العربية من حيث وضعيتها في ثورة المعلومات إلى ثلاث فئات: الدول الخائفة، الدول الراغبة، الدول المدفوعة.

و تضم الدول الخائفة كلا من **الجزائر** و **ليبيا** و**العراق** و **سوريا**، و هي دول ذات وصلات محدودة بالإنترنيت، لتجنب أي آثار سلبية تنجم عن الارتباط بالعالم الخارجي.حيث اتخذت سوريا و ليبيا خطوات حذرة للارتباط بالشركة.

أما الدول الراغبة في الاستفادة من ثورة المعلومات إلى أقصى حد ممكن، مع تجنب ما هو غير مرغوب فيه، تضم: **السعودية، وتونس، والإمارات العربية المتحدة**. وهي الدول التي تحاول أن تطور شبكة وطنية مرتبطة بالإنترنيت، لجني ثمار التجارة الالكترونية، و المعرفة الأكاديمية، و الحكومة الالكترونية في الوقت الذي تتحكم فيه بقوة في تدفق المعلومات عبر الإنترنيت.

و يمكن وصف بقية الدول العربية بأنها مدفوعة، فهي تريد ما توفره ثورة المعلومات،مع الاستعداد لتحمل المخاطرة الناجمة عن الانفتاح على العالم الخارجي عبر الإنترنيت. و تضم هذه الفئة الدول العربية الغنية و قليلة السكان، مثل: **البحرين، و الكويت وقطر**، و دول طورت بنى أساسية قوية في مجال تكنولوجيا الاتصال و المعلومات، مثل: **مصر، والأردن، ولبنان و المغرب وعمان**. أما أفقر الدول العربية و الأقل تقدما في استخدام المعلوماتية هي **اليمن**.[١]

و تعتبر دولة الإمارات العربية أكثر الدول العربية من حيث كثافة الاستثمار في البنى الأساسية لمجتمع المعلومات، تقديرا للمزايا الاقتصادية الناجمة عن ذلك. حيث في عام **٢٠٠٣** قدر أن حوالي **٣٠ %** من المنازل و نصف المشروعات

---

[١] راسم محمد الجمال ،مرجع سبق ذكره،ص١٩٠.

الاقتصادية في الامارات العربية مرتبطة بشبكة الإنترنيت. و من ناحية أخرى تعتبر مصر أقل الدول العربية من حيث أسعار خدمات الإنترنيت و أكبرها من حيث اتساع السوق. حيث تتصدر الدول العربية في أسعار خدمات الإنترنيت السريعة، يليها عمان، المغرب، الإمارات، قطر، الأردن، الجزائر، البحرين، السعودية، السودان، الكويت على التوالي. و تعتبر سوريا الأعلى سعرا بين الدول العربية.

و هكذا يتضح أنّ هناك ثمة فجوة رقمية بمستويات مختلفة بين الدول العربية، فالقدرات التكنولوجية و البشرية في العالم العربي ضعيفة حيث تعاني المنطقة العربية نقصا في حيازة المعرفة المعبر عنها بمعدل تعليم الكبار. و يذكر تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٢ أن العرب يعانون من نقص في حيازة المعرفة وإنتاجها و الدليل على ذلك ارتفاع معدلات الأمية،وانخفاض تسجيلات الطلاب في مراحل التعليم المختلفة قياسا بالدول النامية في شرق آسيا و أمريكا اللاتينية.

ولا توجد دراسات تتناول الجوانب المختلفة للفجوة الرقمية داخل الدول العربية. إذا ما سلمنا بتفاعل العوامل الاجتماعية و التكنولوجية،و يختلف تأثير العوامل الاجتماعية و الديمغرافية على تكنولوجيا المعلومات و الاتصال من دولة عربية

إلى أخربو قد يكون مستوى التعليم،و تركيب السكان من حيث السن،و نوع العملمن العوامل الأساسية المحددة للفجوة الرقمية.

و إلى جانب ما سبق، توجد عوامل أخرى تؤثر على الفجوة الرقمية داخل الدول العربية، و منها:

-**اللغة:**حيث أن معظم المعلومات التي يمكن الاستفادة منها بالغة الانجليزية، و هي لغة يفتقر أغلب العرب إلى معرفتها.

-**غياب برامج التعليم:** التي تستهدف إعادة تأهيل الكبار.

-**الاعتبارات الثقافية المتعلقة بطبيعة عمل المرأة:** و التي تفضل إلحاقها بأعمال لا تتطلب تعاملا مع أنماط التكنولوجيا المعقدة.[١]

إن الأفراد أنفسهم متفاوتون في قدرتهم على الوصول إلى المعرفة و الاستفادة منها و هو يشكل في حد ذاته سببا آخر للفجوة الرقمية داخل هذه المجتمعات.و في ضوء ذلك يمكن القول أن انتشار تقنيات الاتصال و المعلومات تعمل لصالح الأغنياءو الأقوياء و الصفوة، فهذ أيضا يزيد من الفجوات القائمة في مستويات

[1]المرجع نفسه،ص١٩٤.

المعيشة و الفرص المتاحة للأفراد للتفاعل و تحسين أوضاعهم، و هو ما قد ينجم عنه بعض المشكلات الاجتماعية داخل بعض الدول، التي قد تبرز بدورها السيطرة و التحكم الصارم من طرف الأنظمة الذي يسهم هو الآخر بدوره في تفاقم المشكلة ذاتها.

الهوية

يمدنا المنطق الأرسطي بأول محاولة في تحديد مبدأ الهوية و القائم على أن الشيء هو المطابق لذاته فإذا استمر هذا التحديد صامدا على امتداد أزمنة ثقافية عديدة فإن العصور الحديثة قد دخلت علينا بزعزعة لهذا المبدأ و تراءت لنا نقطة استفهام كبيرة:كيف نثبت على هويتنا و نثبتها في عالم متغير؟

إذا كانت موجة الحداثة قد نجحت في تحقيق كل تلك الزعزعة فإن تيار العولمة يكاد يهد كل مقومات الهوية حيث يبدو هذا التيار مستعدا لتجاوز و اختراق كل الحدود لتحقيق أهدافه المتمثلة:

١-سيطرة قيم و عادات و ثقافات العالم الغربي على بقية دول العالم، خاصة الدول النامية و إذابة خصائصها.

٢-فرض مفهوم نهاية التاريخ،وتسليم القيادة البشرية إلى ثقافة الغرب إلى الأبد.

٣-إبقاء حال الهيمنة الغربية أطول فترة ممكنة تحت ستار العولمة.

وباختصار فإن العولمة هي في الحقيقة **هوية بلا هوية** هدفها تفريغ ثقافة الغير من محتواها و استدراجها إلى الثقافة الغربية بشعار مزيف يطلق عليهاسم**العولمة**،هذا الشعار يدعو الجميع للانتماء لعالم واحد، و الانصهار في ثقافة واحدة، و الاحتكام لقوانين عالمية واحدة، حتى نتعايش و نتفاهم؟؟؟ حتى إذا وقع المدعوون في هذا الفخ، اكتشفوا أنهم في قفص **الأمركة**، ثم وجدوا أن اللافتة التي تحمل اسم العولمة تساقطت حروفها و ظهر من تحتها اسم جديد و شعار جديد هو التغريب، فتفطن المخدوعون أن حضارتهم سلبت من حيث لا يشعرون، و ثقافتهم ذابت من حيث لا يعلمون، و هويتهم طمست من حيث لا يدرون.[١]

و قد بدأت تظهر آثار سياسة الهيمنة بملامح حملة تغريب الإنسان في أفكاره و منهاج تعليمه، و في نمط معيشته،و في طعامه و شرابه،حتى في شكله الخارجي.فالعالم كله يشرب كوكا كولا و يأكل عند محلات ماكدونالد،حيث تعد هذه المنتجات رموزا من رموز ثقافة العولمة و هذا يعني تنميط و توحيد السلوك ليصبح عالميا على حساب أنماط السلوك المحلية.

---

[٨]محمود عبد الله،الاعلام و إشكاليات العولمة،دار أسامة للنشر و التوزيع،الأردن،٢٠١٥،ص٢٢٠.

و من جراء ذلك اختفت الأسواق المحلية،ليصبح العالم كله سوقا واحدا مما يسرّع في احتكاك شتى الثقافات بثقافة العولمة،و تشكل السلع و الرموز الأمريكية وسيلة لتغلغل القيم الثقافية الأمريكية في باقي مناطق العالم.

و هكذا عزّز تيار العولمة منطق أن كلّ شيء مطروح للبيع و الشراء ما دامت الثقافة التي يتم نشرها هي ثقافة الربح،و هذه الثقافة تعبر عن النموذج الأمريكي و هو المثل الأعلى الذي تروج له وسائل الاعلام الأمريكية.

و أخطر ما في العولمة أنها تنشر أفكارا و سلوكيات من شأنها تحطم الولاء للقيم و الدين و الوطن، و إحلال أفكار و ولاءات جديدة محلها.[١]

الغزو الثقافي:

في مجمل الكتابات التي تتحدث عن الاقتصاد،والسياسة،و الاعلام و الثقافة و في الأدبيات الأخرى التي تتناول الفنون و الآداب يتكرر مصطلح **الغزو** بوتيرة ثابتة. و تطالعنا باستمرار هذه التحذيرات أو التخوفات التي يطلقها بعض الباحثين:الغزو

[١] جلال أمين،العرب والعولمة،ط١،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت،١٩٩٨،ص١٥٦.

الثقافي يهدد ثوابتنا و قيمنا ، يهدد هويتنا، نحن مهددون بطمس شخصيتنا الحضارية...

لماذا نحن بالذات؟ الشروح لم تتضح و الباحثون لم يقدموا ما يوقظ الوعي لفهم المخاطر و التهديدات التي تحيط بأمتنا. و لكي نصل إلى النتائج المرجوة فإننا سنستلهم من تراثنا المعاني الأولية للغزو.

الغزو في أدبيات التراث:

تشير معاجم اللغة العربية إلى أن كلمة غزو تعني في جوهرها: القتل و النهب، فقد جاء في معجم لسان العرب لابن منظور:الغزو هو السير إلى قتال العدو و نهبه.

و بلغتنا المعاصرة يعني تدمير البنية التحتية للمجتمعالمغزو و القضاء على إنسانه و يتضح أيضا أن الغزو يأتي دائما من الخارج،أي من قبل مجتمع بعيد يفترض العداوة في المجتمع الآخر فينقض عليه.[١]

أما معجم اللغة الفرنسية فيعرف الغزو "**Invasion**" على أنه:

[١] سلمان بن حمد العتيبي،العولمة و الدعاية،أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في علوم الاعلام و الاتصال،جامعة الجزائر،٢٠٠٢،ص٢١٤.

- ❖ تدخل مسلح لدولة معيّنة على دولة أخرى.
- ❖ تدخل واسع مكثف مصحوب بالعنف و تدمير المنشآت يقوم به شعب معين خارجي ضد بلد معين،من أمثلة ذلك غزوات البربر و الغزوات الكبرى.[١]

و إذا سلمنا أن الغزو جزء من الثقافة البربرية التي يرفضها الآخرون أي غالبية البشرية،فعندما يصبح الغزو ثقافيا فإن ذلك يعني أن الثقافة هذه تصبح هي كلها الاستراتيجية و يصبح الغزو أداة لتنفيذها،و بمعنى أوضح أن نظام القيم و الرموز الذي أوضعته أو أوجدته هذه الثقافة المعادية يسعى عن طريق الغزو لأن يحل محل أنظمة القيم و الرموز الذي وضعته الشعوب الأخرى،و ذلك بالعمل على تدميرها و القضاء عليها.[٢]

ورد هذا المصطلح إلى واقعنا العربي ثقافيا،إعلاميا و لغويا مع ظاهرة الاستعمار الحديث الذي استولت فيه البلدان الأوروبية على الدول العربية منذ أواخر القرن الثامن عشر ١٨ حتى أواخر القرن العشرين ٢٠ ، و قد مارست الدول الاستعمارية الغزو الفكري عن طريق وسائل الاعلام،مؤسسات التعليم،المنظمات و الشركاتو النواديو الهيئات، فالغزو الذي اجتاح الأمة الاسلامية مصاحبا الغزو

---

[١] المرجع نفسه،ص٢١٥.

[2] المرجع نفسه،ص٢٤٩.

العسكري ألحق الهزيمة لهذه الأمة في العمق حيث تسبب خسائر مادية و معنوية فادحة،فكما تقول **سوزان سلامة:**"الأعداء إذا شنّوا غارة على بلد ما فإنهم لا ينزلون به سائحين عابرين، ولا زائرين متفرجين، وإنما ينزلون بهم مستبحينعرضه، فإن كانوا طلاب مغانم استنفذوا خيره، و إن كانت لهم أغراض دينية و اجتماعية وضعوا خطط لمحو شخصية الأمة و تغيير ملامحها الفكرية والدينية"[١]

عرّفه **جلال أمين** بأنه:"اعتداء رأسمالي على الهوية الثقافية للأمة المعتدى عليها،من أجل استقلالها اقتصاديا،كما يمكن أن نصنفه بأنه غزو دين لدين آخر أو إحلال ثقافة أمة محل ثقافة أخرى."[٢]

و يصفه **باسم خريسان** بأنه الوليد غير الشرعي للغزو العسكري إلا أنه يختلف عنه كثيرا، ذلك أن الغزو العسكري يضر بالغزاة أكثر مما يحقق أهدافهم، فهو يحرك في الشعوب المغزوة عاطفة الولاء للدين و الوطن،و يثير فيهم حسن العمل الجاد للاستقلال من التبعية للأعداء،أما الغزو الثقافي فهو لا يعتمد المواجهة

---

[١٣] سوزان سلامة،التغريب و الغزو الثقافي و الفكري،تاريخ الاطلاع٢٠١٦/٠٢/١٧

WWW.adabhome.com/vb/showthread.php?t=1408..

[2] أحمد عيساوي،الثقافة الوطنية و تحديات العولمة،شركة مزوار للطباعة و النشر،الجزائر،٢٠٠٤،ص٧٥.

المسلحة أو استخدام القوة،إلا أنه أفضل للغزاة فوسائل الغزو الثقافي ناعمة، خادعة و محفوفة بالشهوات لذا فإن الاستجابة إليه أسرع و أكثر تأثيرا،فآثار الغزو العسكري تنتهي بانسحاب قوات الاحتلال في حين يبقي أثر الغزو الثقافي قائما في عقول و قلوب الناس أكثر بكثير من قتل الأفراد،بل من قتل جيل بأسره إذ يتعدى ذلك إلى قتل أجيال متعاقبة.[١]

أما **محمد الميلي** فيرى أن الاصطدامات الأولى بين الغرب الاستعماري و البلدان التي فقدت استقلالها الواحدة تلو الأخرى في الماضي كانت في جوهرها اصطدامات ثقافية. صحيح أن الشكل الذي اتخذته و النتائج التي تربت عن ذلك جعلت الجانب السياسي.[٢]

و يقول **ابن خلدون** في معنى الغزو الثقافي :"إنما تبدأ الأمم بالهزيمة من داخلها عندما تشرع في تقليد عدوها"[٣] ، و الناظر اليوم إلى حال الدول التي كانت قد تعرضت للغزو الثقافي في السابق نتيجة للسيطرة الثقافية نجدها تعيش في أزمة ثقافية فلا يزال منهجها منسوخا عن المنهج الغربي و لا تزال عقول مثقفيها لا

---

[١٥] باسم علي خريسان،العولمة و التحدي الثقافي،ط١،دار الفكر العربي،بيروت،٢٠٠١،ص٤٠.

[2] محمد الميلي،حق المعرفة و حق الأمل،ط١،دار الغرب الاسلامي،لبنان،٢٠٠٠،ص٢٤٩-٢٥٠.

[3] سوزان سلامة،التغريب و الغزو الثقافي و الفكري،مرجع سبق ذكره.

تدرك إلا النمط الثقافي الغربي،لذلك نجد هذه المجتمعات منقسمة بين فئة تعيش في غربة ثقافية،و هي الفئة التي تمثل النخبة القيادية و المفكرين، و فئة أخرى تمثل الثقافة الشعبية تعيش في غربة ثقافية عن عصرها.[١]

و في الأخير لابد من الإشارة إلى نقطة مهمة، هي أن الغزو الثقافي لا يتوقف حدوثه على الطرف الغازي فقط،و إنما على الطرف المتعرض للغزو أيضا، خاصة إذا كان هذا الأخير لا يملك القدرة على تجديد ثقافته.

إن تحول مجتمع ما نحو الاتصال،ترافقه تغيرات في الحياة الاجتماعية و السياسية و الثقافية و الاقتصادية. و هو ما أكده **مارشال ماكلوهان** حيث يعتقد أنكل مرحلة من مراحل التطور التقني في ميدان الاتصال أدخلت تحولات اجتماعية و ثقافية على المجتمع.فللحكم على مجتمع ما بأنه اتصالي،ينبغي تحديد مجموعة من المتغيرات التي تخص مجالات الحياة الاجتماعية.

لذا لن نتسرع بوصف مجتمعاتنا بأنها مجتمعات اتصالية ، و ذلك حفاوة بالإقبال الشديد على كل جديد في التكنولوجيا،بل سنعمل على تحديد مجموعة من المعايير التي ستمكننا من الحكم على صحة هذا الوصف.و سنكتفي برصد أربع

---

[1] باسم علي خريسان،العولمة و التحدي الثقافي،مرجع سبق ذكره،ص٤٠-٤١.

مجـالات أساسـية: الاقتصـاد، والسياسـة و القـيم و العلاقـات الاجتماعيـة. و الاقتصار على هذه المحاور فقط مرده إلى كون هدفنا الرئيسي ليس هو البحث في مواصفات التحول الاجتماعي نحو الاتصال،بقدر ما نريد التأكيد على السمة الشمولية و الكيفية لهذا التحول.

و نبدأ بمتغير **الاقتصاد**

ترتبط المؤسسات السياسية و الثقافية و حتى الاجتماعية بنظام الملكية التابع لقوانين السوق، و من ثم فإن التغيير في المفاهيم الأساسية للاقتصاد،سينتج عنه تغييرات في أنماط الحياة الاجتماعية.و أكثر من ذلك يؤكد **جيريميـريفكين**"إن عالمنا مشيد حول علاقات اقتصاد الوصول،إذ يمكن أن يقدم لنا نوعا مختلفا جدا من الكائن البشري" [١]

و من المعروف أن الاقتصاد يقوم على مجموعة من العناصر هي: رأس المال و الملكية و التصنيع و العقار و الثروات الطبيعية و أيضا المعرفة التي أصبحت

---

[١٩] جيريمي ريفكين،عصرالوصول:الثقافة الجديدة للرأسمالية المفرطة،ترجمة صباح صديق الدملوجي، المنظمة العربية للترجمة،بيروت لبنان،٢٠٠٩،ص٣٢.

حجر الزاوية في التطور و النمو. غير أن ظاهرة الاتصال أدخلت تحولات جديدة برزت ملامحها في الاقتصاد الجديد، و هذا ما سنوضحه فيما يلي:

١-من اقتصاد الملكية إلى اقتصاد الوصول:

ماذا نقصد باقتصاد الوصول

هو اقتصاد يقوم على المعرفة و المعلومات أكثر من اعتماده على التراكم المادي.

و قد كانت حركية الاقتصاد في العصور السابقة تقوم على عملية تبادل الممتلكات و السلع و البضائع بين البائع و المشتري في الأسواق. أما في عصر الاتصال،حلت الشبكات محل الأسواق، و تراجع الاهتمام بتراكم الممتلكات إلى محاولة الوصول إلى الخدمات.

و يصف **جيريمي ريفيكين** هذا التحول في كتابه عصر الوصول، بقوله " في اقتصاد الشبكات سيكون الوصول إلى الممتلكات المادية و الفكرية من قبل الشركات التجارية أكثر احتمالا من تبادلها.فرأس المال الذي كان في قلب النموذج الصناعي للحياة سيصبح أكثر هامشية في العملية الاقتصادية، و الأكثر احتمالا

أنـه سـيعتبر مـن قبـل الشـركات نفقـة ضـمن كلفـة التشـغيل، بـدلا مـن كونـه أحـد الموجودات، و هو شيء ممكن افتراضه بدلا من امتلاكه.[١]

لم يعد تحقيق التراكم المادي يحظىبالأهمية نفسها، سواء في المواد الأولية أو المصانع، أو وسائل النقل. فالشركات الكبرى ستصبح كيانا متخصصا في إدارة الوساطة، إذ يتم شراء المواد الأولية،و استئجار اليد العاملة الرخيصة في بلدان العالم الثالث، و كذلك استئجار وسائل النقل دون اقتنائها.

و يعتبر هذا عامل قوة بالنسبة لهذه المقاولات، حيث يتابع **جيريمي**" إنه في عالم الانتاج المصمم حسب احتياجات الزبون و الابتكارات و التحسينات المستمرة. و في عالم دورة حياة المنتوج التي تتضاءل باستمرار، يصبح كل شيء تقريبا عتيق الطراز حال انتاجه."[٢]

لهذا يصبح تجنب حيازة الممتلكات عاملا مهما لتقليص هامش المخاطرة التجارية. فتراكم الممتلكات المادية، قد يعزف السوق عن استهلاكها في وقت ما، هذا العزوف سيؤدي إلى خسائر فادحة. مما يجعل شركات الخدمات تغير و تحسن خدماتها، كلما أحست بتغير في ميول المستهلكين. و حتى شركات التصنيع

---

[1] المرجع نفسه،ص٢٩.
[2] المرجع نفسه،ص٣٢.

التي تنتج بضائع مادية، و التي انتهجت مبادئ اقتصاد الوصول،فهي تعمل على استئجار كل شيء مطلوب لتسيير العمل المادي تقريبا.[١]

و هكذا العلاقة التقليدية بين السلعة و الخدمة، أصبحت معكوسة، ففي السابق كانت الشركات تبيع السلع، مقابل خدمات مجانية كالصيانة مثلا. أما الآن فالشركة تقدم المنتج المادي مجانا. مثال على ذلك: شركات الاتصال التي تمنح هواتف مجانية مقابل اشتراك الزبون في خدماتها.

و من هنا يمكن القول أن اقتصاد الوصول يتميز بازدهار قطاع الخدمات،كما يتميز بتراجع الاهتمام بالملكية مقابل التوجه نحو استئجار كل ما له علاقة بالإنتاج المادي، و يتميز أيضا بتراجع أهمية البضاعة المادية مقابل الخدمة التي توفرها.

٢- الصناعات الثقافية و الابداعية:

استعمل هذا المفهوم لأول مرة من قبل باحثي مدرسة **فرانكفورت** سنة **١٩٤٧: تيودور أدورنو و ماكس هوركايمر**، و هو يشير إلى:"الأنشطة الصناعية التي تنتج و تسوّق الخطابات، والصور، والفنون و كل القدرات الأخرى و العادات التي

[1] المرجع نفسه،ص٣٠.

يكسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع، و التي تمتلك و بدرجات مختلفة خصائص الثقافة"[١]. أو هي كما أشار إليه الباحثان:" مصطلح يضم مجموع الأنشطة و التقنيات التي تعيد إنتاج الأعمال الثقافية طبقا لمعايير إخضاع للمنطق و النمطية."[٢]

وتجدر الإشارة إلى أن البدايات الأولى للصناعة الثقافية تمت حسب **أرمون ماتلار** عقب تشكل المجموعات الصحفية و التي كانت بدورها وراء الأنواع الصحفية الأولى للمنتجات الثقافية الجماهيرية [٣]، يقول الجابري: أن من أهم خصوصيات هذا العصر ظهور بنية جديدة تسمى الصناعات الثقافية فرضت أنماطا جديدة للتعبير الثقافي تتجاوز في غالب الأحيان بنية السياسات الثقافية المحلية و

---

[1] أحمد عيساوي،الثقافة الوطنية و تحديات العولمة،مرجع سبق ذكره،ص٨٠-٨١.

[2] ٢٤-HeléneBourdelois :La conjonction de la technique de la culture des médias de masse. 30/01/2016http://composite.org/v1/2001.1/articles/bourde.html.

[٢] راضية فويال، العولمة الثقافية و مفهومها ضمن الركن الثقافي لجريدة الخبر اليومية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علوم الاعلام و الاتصال،جامعة الجزائر،٢٠٠٢،ص٦٨-٦٩.

الوطنية.فبعد الحرب العالمية الثانية تبيّن لرجال السياسة و الاقتصاد أن هذه الصناعات تمحورت اتجاهاتها حول تصنيع و تسويق وسائل الاتصال،فأصبحت المعادلة حتمية حيث تنطلق القاعدة من الصناعات الثقافية إلى تصنيع وسائل الاتصال، و أخيرا إلى المحتوى الثقافي لهذه الوسائل [١]، وحسب **هوركايمر** و **أدورنو** فإن الوسائل الجديدة للإنتاج الثقافي المتمثلة في الإذاعة، والسينما، والتلفزيون لا تقدم إلا السلع المنمطة التي تدخل المستهلكين في متاهة الاغتراب، و تسقط الأعمال الثقافية في حيّز السوقية و التسليع.[٢]

ولم تتوقف الثورة التقنية عند حدود ظهور الاستوديوهات الكبرى للإنتاج السينمائي و التصنيع الثقافي، بل إن اختراع و تطوير الكمبيوتير، البث عن طريق الأقمار الصناعية و الإنترنيت أعطاها دفعا جديدا سهّل عملية نقل شتى المنتجات الثقافية ذات البعد الاستهلاكي، و ساعد على ترويجها في كافة أنحاء العالم، و تشكلت

---

[١] كمال راشدي،عولمة الاتصال و أثرها على السيادة الثقافية لدول العالم الثالث،مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في القانون الدولي،جامعة الجزائر،٢٠٠٢،ص١٠٤.

[2] HeléneBourdelois :La conjonction de la technique de la culture des médias de masse.Opcit.

بذلك المظاهر الأولى لعولمة تدفق المواد الصناعية من جهة و عولمة الثقافة عبر التدفق الحر للمنتجات الثقافية النمطية و السلع الاعلامية من جهة أخرى.[١]

و هكذا فالصناعات الثقافية قطاعات واسعة جدا من المواد المتنوعة و الوسائل المادية التي تستخدم في إنتاج الثقافة، فهي تشمل الورق، والحبر، ومواد الطباعة، والأجهزة السمعية البصرية، وأجهزة التصوير، والأجهزة الالكترونية، والآلات الموسيقية، ومواد الفنون التشكيلية و المسرحية، و القائمة طويلة و متنوعة.

و لأن المبدأ الذي تقوم عليه أنشطة الصناعة الثقافية هو مبدأ الترويج التجاري،فإن ما تنقله من منتجات ثقافية سوف يؤثر بالضرورة،حيث أن هذه الصناعات الثقافية أضحت تلعب دورا رئيسيا في تشكيل اتجاهات و مواقف مستهلكيها.ففي كل يوم يتم ابتكار و اختراع أشياء جديدة تجعل الحياة أكثر سهولة و رفاهية.هذا النمط الجديد في الحياة يصنع ثقافة جديدة و حسب قول **لينين"لكل نمط من المعيشة نمط من التفكير"**.

---

[١] راضية فويال، العولمة الثقافية و مفهومها ضمن الركن الثقافي لجريدة الخبر اليومية، مرجع سبق ذكره، ص٦٩.

و قد سبق **لأدورنو**أن اكتشف حقيقة الثقافة المصنعة بحكم كون النشاط الثقافي المعاصر هو نتاج المجتمع الصناعي و التقني المتقدم الذي تغدو فيه الثقافة آلية تمثل الواقع الصناعي المغترب،و فكرة التخدير الفاقد لمحتوياته الجذرية بسبب تمثله داخل ثقافة جماهيرية استهلاكيةعامة ترضي حاجة اجتماعية.[١]، إذا فالصناعات الثقافية هي كل الأجهزة المادية و الطاقات البشرية التي تجسم الآثار الفنية في صورتها المحسوسة فتنسخها ثم توزعها حسب مقاييس صناعية و تجارية لغاية تنمية و تطوير الثقافة.

و في نفس السياق يرى **Pontoizeau A. Pierre.** بأن:"الثقافة أصبحت بفعل الموضة تشكل القاعدة الأساسية للاستهلاك في ظل النظام الاقتصادي الرأسمالي، و أن العمل الاعلامي في هذا النظام قد ساهم و أبدع في خلق سياق اجتماعي و نفسي يضمن الاستمرارية في الرغبات الجديدة عبر الموضات التي يخلقها المحيط الثقافي المكون من الصور، الأبطال، طرق اللباس، الأذواق الغذائية..."و من هنا تتضح المبادئ الأساسية التي تحكم الصناعات الثقافية

---

[١] بركات محمد رياض،العولمة و ظاهرة الهيمنة

http://alwai.com/topics/view/article .php sdd=97&issue=448،٢٠١٦/٠١/٢٣،

القائمة على مبدأ التسليع و إخضاع المنتجات الثقافية للنهج التجاري المتبع في انتاج السلع.[١]

بمعنى آخر سقوط الفعل الثقافي في حلقة التسليع و التصنيع مثله مثل أي منتج، و هذا من شأنه أن يحوله إلى قيمة تجارية مادية تقضي على قيمته الحقيقية، لهذا فالدور الوجودي للثقافة في أي مجتمع باعتبارها نظاما لإنتاج المعاني و الرموز و القيم المحددة لسلوك الفرد سوف يتراجع، بحيث تصبح هذه الأخيرة مجرد وسيلة لتعبئة الجماهير لحثهم على استهلاك مختلف السلع.

فمصطلح الصناعات الثقافية بني على الربط بين موضوعين يتناقضان بالضرورة ظاهريا: صناعة من ناحية و ثقافة من ناحية أخرى،فالصناعة تشير إلى معنى الانتاج الاستهلاكي النفعي كصناعة المنسوجات،أما الثقافة تصرف الذهن إلى الذوق الشخصي، المتعة الفردية، هذه المزاوجة بين الثقافة و التقنية هي نتيجة التحولات التي طرأت على هيكل المجتمعات المعاصرة،حيث لم يعد بالإمكان الفصل بين التطوير و التكنولوجيا أو بين التنمية و التقنية.[٢]

---

[1] راضية فويال،مرجع سبق ذكره،ص٧٠.

[2] هوشنك أوسي،صناعة الثقافة و تحديات العولمة، http://www.syriakurds.com/2007/adab/adab5.html٢٠١٦-٠٢-٢٥

هذه العملية التي كان قد نوّه إليها كل من **أدورنو** و **هوركهيمر** عندما وضعا مبادئ الصناعات الثقافية التي ترتكز عليهاو هي:

أ-الوصول بالمنتج الثقافي إلى كل أفراد المجتمع.

ب-إتباع رغباتهم و حاجاتهم من المنتجات الثقافية التي تخضع إلى آليات التصنيع و التجارة أي إلى قانون العرض و الطلب.

فالإنتاج الثقافي في وسائل الاعلام هو ذات طابع استهلاكي منمط، لذا يرى البعض أن الصناعة الثقافية تمثل تهديدا على الثقافات التقليدية بفضل ما تتمتع به من قدرة على الانتشار و الاختراق، و لذلك أصبحت الدول تعبّر عن تخوفها من هذه الصناعة الثقافية خاصة منها الأمريكية.[١]

فحسب **إدغار موران** فإن طريقة معالجة و تكييف الأعمال الفنية من روايات و قصص تتم عن طريق البحث المتواصل عن عناصر جديدة لتجاوز النمطية التي تميز المنتجات السينمائية الأمريكية ، و من بين هذه العناصر هو تركيز المنتجين على عنصر **النجم** مثلما هو الحال بالنسبة لفيلم **التيتانيك** للمخرج الأمريكي

[1]HeléneBourdelois: La conjonction de la technique de la culture des médias de masse،Opcit.

جيمس كامرون الذي حقّق رواجا كبيرا بعد ما تمّ إخراجه بتوظيف نجوم جديدة استلطفها الجمهور.

و من جهته يذهب **هربرتماركيوز** في كتابه **الإنسان ذو البعد الواحد** إلى الاعتقاد أن النظام الاجتماعي السائد في الدول الصناعية المتقدمة القائمة على التكنولوجيا الحديثة يسيطر على أفكار الناس،مشاعرهم،قيمهم لمصلحة مجموعة من المالكين أو المسيطرين على هذا النظام،كما يعتقد **ماركيوز** أن الحاجات التي يلبيها هذا المجتمع المعاصر هي حاجات وهمية من صنع الدعاية و الاشهار و وسائل الاتصال الجماهيري، و هي خير وسيلة لخلق الإنسان ذي البعد الواحد الذي يستغني عن الحرية و هكذا يكون الواقع التكنولوجي الراهن هو واقع استعباد الانسان.[1] حيث عبّر عن هذه الفئة من خلال وصفهم بالدواب المسيّرين كالقطعان مكن قبل صاحب الشأن فتراهم لا حول و لا قوة إزاء أي ابتكار خاصة إذا تعلق الأمر بمجتمعات الدول النامية.

إن الإنسان ذا البعد الواحد و المجتمع ذا البعد الواحد يطرح ثقافة ذات بعد واحد،هذه الثقافة تنتج حاجات زائفة،فالنظام الرأسمالي يولد شعورا بعدم الأمان

[1] بركات محمد مراد،العولمة و ظاهرة الهيمنة،مرجع سبق ذكره.

الاقتصادي،و من ثمّ هيأت الثقافة لإنتاج شعور بديل هو في حقيقته شعور زائف بالأمان و الاستقرار، و في الوقت نفسه فعّال رغم زيفه و من ثمّ فإن الثقافة في المجتمع الرأسمالي موجهة نحو هدف واحد،هو تخدير وعي الإنسان و إذابة الفرد في النسق العام و إحكام سيطرة النسق على شعور ووعي المجتمع.[١]

إن عملية التصنيع الثقافي تؤدي إلى تضييق الخناق على الابداع مقابل تصاعد وتيرة الانتاج المعياري الذي يخضع المضامين لنمط واحد من التصنيع يعتمد بالدرجة الأولى على الجماليات الشكلية،كما تضفي السطحية و ضحالة المضمون على الرسالة بالإضافة إلى تكريسها للترفيه و التماثل الاجتماعي، بمعنى إفقادها طابعها الفكري الأصيل.

فيما سبق كان الابداع نشاطا فرديا، يضفي نوعا من التمييز و النجومية على صاحبه.و غالبا ما ينشط داخل الأوساط الثقافية النخبوية،أو الأوساط الفنية الشعبية، أو الأوساط الحكومية. أما حاليا فقد تحول الابداع في عصر الاتصال إلى عملية مؤسساتية تغذي الاقتصاد.فبدلا من أن يرجع الابداع إلى صاحبه أصبح يرجع إلى المؤسسة الممولةأو المنتجة.

---

[1] عامر مصباح،علمالاجتناع:الرواد و النظريات،ط١،دار الأمة،الجزائر،٢٠٠٥،ص١٧٣-١٧٤.

فالصناعات الابداعية أو كما يطلق عليها الصناعات الثقافية حسب منظمة اليونيسكو:"هي مجالات النشر و الموسيقى و السينما و المهن الحرفية و التصميم، و هي صناعات تشهد نموا مستمرا و متعاظما و تلعب دورا حاسما في مستقبل الثقافة."[١]

و يشرح **جون هارتلي**أهمية الصناعات الابداعية بقوله:" أصبحت الصناعات الابداعية عنصرا مهما في تكوين اقتصاد الدول، ففي سنة**٢٠٠١**، قدر صافي عائدات صناعات حقوق النشر الأمريكية ب **٧٩١,٢ بليون دولار أمريكي**، و هو ما يعادل **٧,٧٥** من إجمالي الناتج القومي، و يعمل بها حوالي **٨ ملايين** عامل. و يبلغ إسهامها في المبيعات أي صادراتها الأجنبية قدرت ب **٨٨,٩٧ بليون دولار أمريكي**،أي ما يفوق إسهام الصناعات الكيميائية، والسيارات، و الطائرات، و قطاع الزراعة، و الصناعات الالكترونية، و الحاسوب. و في المملكة المتحدة، في السنة نفسها قدرت عائدات الصناعات الابداعية ب **١١٢,٥٢ بليون استرليني**. و يعمل بها**١,٣ مليون** شخص. و تسهم ب **١٠,٣ بلايين جنيه استرليني** من الصادرات. و تشكل **٥ %**من الناتج القومي الاجمالي. و في استراليا قدرت

[1]الموقع الرسمي لمنظمة اليونيسكو www.unesco.org/ar-creativity-creative-industriesال

عائداتها ب **٢٥ بليون دولار استرالي**، و تجاوزت القطاعات الأكثر دينامكية، فمحتويات الاعلام الرقمي بلغ معدل نموها ضعف معدل نمو الاقتصاد ككل.

و هكذا يبدو جليا من خلال هذه الاحصائيات، تحول الصناعات الابداعية من نشاط فردي يبرز المواهب و الكفاءات و يهدف أساسا إلى تحقيق الرضا عن الذات إلى فاعل اقتصادي قوي، يضاهي أو يتفوق على القطاعات الاقتصادية التقليدية. و يعود سبب هذا الصعود القوي للصناعات الابداعية إلى التحول نحو اقتصاد الوصول، وهذا ما يؤكده **بيل غيتس** و الذي يعتبر من أثرياء العالم، رغم أن شركته–**مايكروسوفت**– لا تنتج حواسيب، فهي تقوم فقط بإعداد برامج لها.

و يرى **جون هارتلي**أن أهمية الصناعات الابداعية تعود إلى دورها المتوقع كموجه للمعرفة الاقتصادية و مسير للصناعات و الخدمات عبر تزويدها بالمحتوى الرقمي الذي يترجم مباشرة إلى ميزة تنافسية و طاقة إبداع لقطاعات الاقتصاد الأخرى. و كذلك عبر احتضان رأس المال الابداعي و المبدعين عموما.[١]

---

[٣٦]جون هارتلي،الصناعاتالابداعية:كيف تنتج الثقافة في عالم التكنولوجيا و العولمة،ترجمة بدر السيد سليمان الرفاعي، ج١،أفريل ٢٠٠٧،ص٨.

يبقى أن نؤكد أن الصناعات الابداعية محتواة في جسم الاقتصاد العام من خلال بنيات مهيكلة، تتفرع إلى قطاعات كاملة التنظيم. و على حد تعبير **جون هارتلي** " الوظيفة الاجتماعية للإبداع لا تتحقق لأن الأفراد مبدعون،لكن تتحقق بما يتوافر لهؤلاء المبدعين من المال،و البنية التحتية، و التنظيم، و الأسواق، و مناخ يسوده الحرية بشقيها الاقتصادي و السياسي و التنظيم و التحفيز و عمليات واسعة النطاق يمكنها استيعاب ذلك الابداع."[١]

٣-تسويق الموارد الثقافية:

إنّ من أبرز ما حملته العولمة في عصر الاتصال هو تحول الموارد الثقافية إلى سلع تجارية يتم تسويقها،ضمن ما يمكن أن نطلق عليه **اقتصاد الترفيه.**

و يتم تسويق و تصنيع الموارد الثقافية،بما في تلك الطقوس أو الشعائرالمختلفة،و الفنون و الاحتفالات و الفعاليات الودية و الروحية، و كل ذلك بهيئة تسلية شخصية مدفوعة الثمن.[٢]

---

[1] المرجع نفسه،ص٧.

[2] جيريمي ريفكين،مرجع سبق ذكره،ص٣٠.

وهكذا أخضعت الصناعات الثقافية و الاعلامية إلى منطق التسليع من خلال استخدام تقنيات الانتاج الصناعي و أسلوب العمل المنظم حسب النظام الرأسمالي.

فمع مرور الوقت، تطورت الأنشطة الثقافية و الاعلامية و المعرفية عموما لتقترب من نموذج النشاط الاقتصادي النمطي القائم على استخدام عوامل الانتاج التقليدية،من عملو رأسمال في مرحلة أولى.ثم الاستفادة من الابتكارات و الابداعات في مراحل أخربو ذلك بالانتقال إلى النوع الأحدث كما هو الشأن بالنسبة للنشر الالكتروني.ولقد سمح التطور التكنولوجي، بتطوير تقنيات الانتاج و بالتالي رفع انتاجية العمل عن طريق تحسين مستواه المعرفي، مما أدى إلى زيادة أوقات فراغ المستخدمين و الموظفين، و منه ارتفاع الطلب على المنتجات و الخدمات الثقافية و شيوع مختلف أنماط الاستهلاك الثقافي الحديث.

و تبعا لهذا فإنّ مظاهر القوة للمجتمعات لم تعد كما في ظل الاقتصاد القائم على القاعدة المتمثلة في استهلاك المنتجات الصناعية أو الموارد التقليدية التي تضمن تحقيق عوائد مالية أو منافع تجارية آنية. بل إن القوة الدائمة و الفعلية إنما يضمنها امتلاك وزيادة القدرات و الامكانيات و المهارات لإنتاج المعرفة و المزيد

منها باستمرار مع تسخيرها في الميدان لفائدة المواطنين. تلك التي تضمن تراكم المعلومات و الأفكار.[١]

فالميسورون ماديا سيسعون إلى دفع مبالغ مالية كبيرة ليعيشوا تجارب ثقافية أو روحية،قد تكون خارج بلدهم الأصلي،حيث كثر الحديث عن **التنمية البشرية** و **البرمجة اللغوية و العصبية** و هي أفكار ذات بعد حضاري هادف إلى تزويد الناس بالمهارات الكافية لجعلهم يتغلبون على إحباطاتهم الذاتية و يتحولون إلى أفراد إيجابيين و فاعلين و مبدعين، إلى جانب هذه التجارب الروحية مدفوعة الثمن. نذكر أيضا الرقصات الشعبية ذات الحمولة الرمزية و التاريخية التي تعرض أمام جمهور من السياح تجذبهم طرافة العرض، و خاصة أنهم لم يعتادوا على مثل هذه العروض.و ليس لهم معرفة سابقة بعلاقة هذه الرقصات بالفروسية و الشهامة، و غيرها من القيم الأصيلة السائدة و أيضا الفضول الذي يسكن البشر.

يلاحظ **جيريمي ريفكين** أن شركات الاعلام العابرة للحدود المالكة لشبكات الاتصال المنتشرة في العالم، تنقب عن الموارد الثقافية المحلية في كل أصقاع العالم، و تعيد تعليبها كسلع ثقافية.[١]

---

[1] الدكتور نبيل،الثقافة العربية و عصر المعلومات،عالم المعرفية،كويت،٢٠٠١،ص١١.

يقول في هذا المقام:" لم أستطع مقاومة استفزاز تسليع الثقافة، ضمن ما أصبح يطلق عليه **اقتصادالتجربة**، التي تجاوزت تسليع التجارب الثقافية و الروحية، لتصبح كل ثانية من حياة الانسان سلعة قابلة للمتاجرة بها". و الأمر الذي يوضحه **جيريمي ريفكين** في قوله"أصبح التعبير الجديد المستخدم في عالم الأعمال هو القيمة العمرية **lifetime Value** أو اختصارا **LTV** للزبون، و هي المقياس النظري لما تبلغه قيمة الكائن الانساني فيما لو اعتبرت كل لحظة من عمره كسلعة بطريقة أو بأخرى في المحيط التجاري. و في العصر الجديد، سيقوم الأفراد بشراء وجودهم ذاته كقطع تجارية صغيرة."[٢]

٢-توظيف المسوغات السياسة:

لقد وظفت السياسة تقنيات التواصل لعمليات الدعاية و حشد الأصوات الانتحابية. فالعلاقة الموجودة بين الاتصال و السياسة معقدة يجب النظر إليها من عدة أوجه نعرضها فيما يلي[٣]:

---

[1]المرجع نفسه،ص٣٣.

[2]جيريمي ريفكين،مرجع سبق ذكره،ص٣٤.

[3]فيليب تايلور،قصف العقول:الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي،ترجمة سامي خشبة،سلسلة عالم المعرفة،ع٢٥٦،أفريل٢٠٠٠،ص٦٧.

١–فحسب **بيير ليفي:**"لم يعد الأمر يخص علاقات القوى و الصراعات الطبقية بل ألاعيب التواصلو باللغات. و في الأخير أن الديمقراطية بالنسبة لنظام معين هي مشكل تقني:يلزم الإخبار الصاعد،قدرا أكبرمن التجاوب و الشفافية. كما يتعين أن يكون الاعلام في متناول الجميع.[١]

٢–تكفل تقنيات التواصل حماية السلطة،لأنها تضمن التحكم في التيارات الاجتماعية و تقلباتها السياسية.و تتيح التنبؤ بالثورات التي تأتي من الشارع.[٢]

ويستطرد الباحث فيقول إنّ:...السلطة هي معسكر اللانظام، و هي تخشى الموت و تسعى باستمرار نحو توليد و بعث الحياة الاجتماعية. و لعل موقفا وسطا بين هذين الاتجاهين يمكن أن يكون هو استراتيجيا.إن هاته الأحداث يمكن إحداثها بواسطة أدوات التواصل. فمجتمع الاتصال يتواصل بوسائل الاعلام لتحقيق الديمقراطية و هي الوسائل نفسها التي تعمل على تدجين الوعي العام.

---

[1] بيير ليفي،ميتولوجيا:اشكاليات الفكر المعاصر،ترجمة محمد سبيلا،ط١،سلسلة ضفاف،٢٠٠٩،ص٢٠٥.

[٢] ثورتا تونس و مصر:رؤيةسيبرانية،مجلة قضايا استراتيجية،العدد٣،ديسمبر ٢٠١١،تونس،ص٦٨.

٣-و يطرح مجتمع الاتصال نوعا جديدا من السلطة، و مفهوما جديدا للسياسة:فالسياسة التي تتغذى على الايديولوجيات لن تبقى صالحة في مجتمعالاتصال، و هذه النظرة الجديدة إلى السياسة ستشكل حسب **فيليب بريتون** بديلا حقيقيا للأيديولوجيات السياسية التقليدية، بمعنى أنها ثمرة يوتوبيا.

كما أن السياسة في مجتمع الاتصال لا تقوم على الاقصاء، و لن تحتاج إلى الدخول في صراعات، لأن تحرير المجتمع لا يحتاج إلى أكثر من تحرير الاتصال.الذي ليس له عدو بشريفالعدو الوحيد هو التشويش الذي يعرقل عملية الاتصال. و هكذا فإن القيام بالاتصال بالحيوية و الفاعلية المطلوبة، يكفل تحرر المجتمع.[١]

فينتظم المجتمع ذاتيا بفضل التغذية الراجعة،و بفضل صفة الانفتاح التي تتصف بها طرق الاتصال.[٢]

---

[1]Philippe Breton, L' utopie de la communication: Le mythe du village planétaire, La découverte, Paris, 1997, P74.

[2]Ibid, P76

و التنظيم الذاتي أمر أساسي،فمجتمع الاتصال قائم على نظام الشبكات، تحكمه علاقات معقدة. هذه العلاقات حتى و إن كان في استطاعة رجال السياسة التدخل فيها قانونيا،فإنهم لن يستطيعوا فعل ذلك عمليا، لأن تغيير طبيعة مجال واحد يستدعي تغيير البناء الاجتماعي بكل مجالاته.

٣-البعد الاجتماعي لمنظومة القيم:

عوضت فلسفة الاتصال مفهوم الانسان بمفهوم الكائن الاتصالي،حيث تحول الانسان إلى مجرد وسيط في شبكة الاتصال الكبرى،و يمكن له أن لا يتوقف أبدا عن الاتصال طيلة اليوم أي ما سماه **فيليب بريتون بالديمومة الاتصالية**، ليصبح الفضاء الاجتماعي عملية اتصالية كاملة، خصوصا و أن العلاقات المهنية و الاجتماعية يمكن أن تتجسد في عمليات اتصالية: كالمراسلات الادارية، رسائل الفاكس، و الرسائل الالكترونية و الاتصالات الهاتفية، و لن يصاحب هذا الزخم أي اهتمام بمضمون الاتصال، فالاتصال يظهر كقيمة جديدة و في الوقت نفسه يظهر كقيمة فارغة من دون مضمون.[١] فيكثر حينهاالاتصال، و يقل اللقاء المباشر.

[1]Ibid, P123

و سيمتنع الانسان من أن يكون مسيرا من الداخل، عبر قيم و مثل عليا، بل سيصبح مجرد معلومة تندرج في شبكة الاتصال الواسعة. و هكذا فإن البحث عن القيم سيتجه إلى الخارج، نحو أنماط من السلوك و القيم يقتدي بها ليتوجه ضمنها للعالم الخارجي[١]. و ستكرس الشفافية، و يصبح المجتمع بدون أسرار، و كل فرد فيه يكون مكشوفا للجميع.

أما على مستوى القيم، فقد عمل مجتمع الاتصال على توسيع دائرة النقاش، أي ما وصفه **فيليب بريتون باتساع فضاء الحجاج** إذ يقول:"و من الآن فصاعدا سيتعلق كل شيء بالحجاج، وسيصبح بالإمكان مناقشته... و قد قدمت التصورات الجديدة للاتصال إطارا ضروريا جدا لهذا الانفتاح في كل الاتجاهات"[٢]

و يبرز البعد الاجتماعي ليوتوبيا الاتصال في أربعة نقاط:

١-تصاعد الشفافية: لقد كرست الشفافية إلى أبعد الحدود،أصبح المجتمع بدون أسرار، و كل فرد فيه مكشوفا للجميع. و تطال الشفافية أكثر البؤر حميمية في

[1] Ibid, P72.

[2]Ibid, P122.

حياة الانسان: الميول و الرغبات التي تصبح ملكا مشاعا، و صورا معروضة، و متعة مدفوعة الثمن.

٢-اتساع فضاء الحجاج: لقد ساهم مجتمع الاتصال على توسيع دائرة النقاش، الأمر الذي يصفه **بريتون** باتساع فضاءالحجاج، إذ يقول:"و من الآن فصاعدا سيتعلق كلّ شيء بالحجاج، وسيصبح بالإمكان مناقشته، وقدمت التصورات الجديدة إطارا ضروريا لهذا الانفتاح في كلّ الاتجاهات.[1]و هكذا يصبح كل شيء مطروح للنقاش:الدين، المقدسات، القيم و الأخلاق، و الأكثر من ذلك تصبح القيم نسبية، لا تستمد قوتها من صدقها، بل بصبح مصدر القوة هو مقدار البراعة في عرض الموقف و ليس الموقف ذاته. الأمر الذي أشار إليه **تيودور أدورنو** بقوله: "الكذبة السافرة وحدها تملك الآن حرية قول الحقيقة.إن الخلط بين الأكاذيب و الحقائق جعل التمييز بينهما أمرا عسيرا، إذ لا يتم فقط كبح الحقيقة كما هو الحال في الأنظمة القمعية، التي تؤدي إلى نسف جوهر الاختلاف بين الحقيقي و

---

[1]ه.Philippe Breton, L' utopie de la communication: Le mythe du village planétaire,Opcit,P122.

الزائف. فالكلمة التي كانت يوما وسيلة حرة للتواصل تصبح اليوم واحدة من تقنيات الغطرسة، و تتيح المجال لكل فرد بأن يبث حوله مناخا للاحتماء في كنفه."[١]

٣-اتصال بدون مضمون أو محتوى: فمع التوسع الملفت الذي يعرفه الاتصال في الدول العربية، انتشرت ظاهرة تبادل تهاني العيد عبر رسائل الهاتف القصيرة و مواقع التواصل الاجتماعي التي أصبحت تجنب صاحبها حرج عدم الزيارة. و يلاحظ أن بعضا من هذه المؤشرات قد بدأت تدخل إلى المجتمع العربي نذكر منها: الصناعات الابداعية والمتمثلة في البرامج التلفزيونية المتعلقة بالمسابقات الغنائية المخصصة لاكتشاف النجوم. و تمثل هذه البرامج الوجه الاعلامي لمقاولات تجارية مهمة.

٤- صعود الأقليات: انتشرت من جهة أخرى ظاهرة الأقليات، و هي جزء من نسيج أو خليط إنساني موجود داخل المجتمع متفرقة مقيمة في مجتمع واحد، تجمعها قواسم مشتركة، تستطيع من خلالها إدارة عملياتها الاتصالية. و لهذا كان **نوربرتفاينر** ينتقد التنظيمات الجغرافية الواسعة مقابل تثمين الجاليات الصغرى. فشهد العالم أقليات حسب النوع كالمنظمات النسائية،أو حسب السن كجمعيات

---

[1] كريستوفر نوريس،نظرية لا نقدية:ما بعد الحداثة المثقفون و حرب الخليج،ترجمة عابد اسماعيل،ط١،دار الكنوز الأدبية،بيروت،١٩٩٩،ص٥.

الشباب، و الأطفال، أو المتقاعدين أو حسب الميول:كأحزاب الخضر، أو حسب العرق أو اللغة أو الطائفة الدينية. فمن بين أسباب صعود الأقليات في منطقة الشرق الأوسط مثلا تصدّع بنية الدولة القومية و التمركز الجغرافي و الدعم الخارجي، و التهميش الاقتصادي و الاجتماعي.

و هكذا يبدو جليا، أن تحول المجتمعات نحو الاتصال عملية معقدة لا يمكن حصرها في بعدها المادي أو الكمي، و أن تحول مجتمع ما إلى مجتمع اتصالي يعني أن كل أنشطته تقوم على الاتصال،بما فيها الأنشطة السياسية و الاقتصادية و العلاقات الاجتماعية. ما يدفعنا إلى الحذر من هذا التحول و الانتباه إلى الخصوصية الثقافية و القيم الاجتماعية.

مراجع الدراسة:

المراجع العربية

١. أحمد عيساوي،الثقافة الوطنية و تحديات العولمة،شركة مزوار للطباعة و النشر، الجزائر،٢٠٠٤.

٢. الدكتور نبيل،الثقافة العربية و عصر المعلومات،عالم المعرفية، الكويت،٢٠٠١.

٣. السيد يسين،من مجتمع المعلومات العالمي إلى مجتمع المعرفة،الأهرام،العدد ٤٦٧٤٩،٤ ديسمبر ٢٠١٤.http://www.ahram.org.eg/NewsQ/344463.aspx،تاريخ الاطلاع ٢٠١٦/٠١/٢٠.

٤. الموقع الرسمي لمنظمة اليونيسكو-www.unesco.org/ar-creativity-creative-industries

٥. باسم علي خريسان، العولمة و التحدي الثقافي، ط١، دار الفكر العربي، بيروت،٢٠٠١.

٦. بركات محمد رياض،العولمة و ظاهرة الهيمنة، http://alwai.com/topics/view/article .php?sdd=97&issue=448، ٢٠١٦/١/٢٣

٧. بيير ليفي، ميتولوجيا:اشكاليات الفكر المعاصر،ترجمة محمد سبيلا،ط١،سلسلة ضفاف،٢٠٠٩.

٨. جـلال أمـين، العـرب والعولمـة،ط١،مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة، بيروت،١٩٩٨.

٩. جون هارتلي،الصناعات الابداعية:كيف تنتج الثقافة في عالم التكنولوجيا و العولمة، ترجمة بدر السيد سليمان الرفاعي،ج١،أفريل ٢٠٠٧.

١٠. جيريميريفكين،عصرالوصول: الثقافة الجديدة للرأسمالية المفرطة، ترجمة صباح صديق الدملوجي،ط١،المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان،٢٠٠٩،

١١. راسم محمد الجمال،الاتصال و الاعلام في العالم العربي في عصر العولمة، ط١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة،٢٠٠٦.

١٢. راضية فويال، العولمة الثقافية و مفهومها ضمن الركن الثقافي لجريدة الخبر اليومية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علوم الاعلامو الاتصال،جامعة الجزائر،٢٠٠٢.

١٣. سلمان بن حمد العتيبي، العولمة و الدعاية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في علوم الاعلام و الاتصال،جامعة الجزائر،٢٠٠٢.

١٤. WWW.adabhome.com/vb/showthread.php?t=140 8..17/02/2016 سوزان سلامة، التغريب و الغزو الثقافي و الفكري.

١٥. فيليب تايلور، قصف العقول: الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي، ترجمة سامي خشبة، سلسلة عالم المعرفة، ع٢٥٦، أفريل٢٠٠٠.

١٦. كريستوفر نوريس، نظرية لا نقدية: ما بعد الحداثة المثقفون و حرب الخليج، ترجمة عابد اسماعيل، ط١، دار الكنوز الأدبية، بيروت،١٩٩٩.

١٧. كمال راشدي، عولمة الاتصال و أثرها على السيادة الثقافية لدول العالم الثالث، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في القانون الدولي، جامعة الجزائر،٢٠٠٢.

١٨. محمد الميلي،حق المعرفة و حق الأمل، ط١، دار الغرب الاسلامي، لبنان،٢٠٠٠ .

١٩. محمود عبد الله،الاعلام و إشكاليات العولمة،دار أسامة للنشر و التوزيع،الأردن،٢٠١٥.

٢٠. مصباح عامر،علمالاجتماع:الرواد و النظريات،ط١،دار الأمة،الجزائر،٢٠٠٥.

٢١. هشام المكي، ثورتا تونس و مصر:رؤيةسيبرانية،مجلة قضايا استراتيجية، العدد٣، تونس، ديسمبر ٢٠١١.

٢٢. هوشنك أوسي، صناعة الثقافة و تحديات العولمة، http://www.syriakurds.com/2007/adab/adab5.html،تاريخ الزيارة ٢٠١٦/٢/٢٣.

المراجع الأجنبية

23. HeléneBourdelois: La conjunction de la technique de la culture des Medias de masse.

http://composite.org/v1/2001.1/articles/bourde.html.30/01/2016

24. Philippe Breton, L' utopia de la communication: Le mythe du village planétaire, La découverte, Paris, 1997.

25. Warren I. Sussman, Culture as history: The transformation of American society in the twentieth century, Pantheon Books, New York, 1973.